ماهية الابستيمولوجية:

الابستيمولوجية epistemologie: مصطلح ذو أصل اغريقي مؤلف من كلمتين epistemo وتعني لغويا " نظرية ومعرفة " وكلمة "logos" الذي يعني في أصله اليوناني "logie" أي العلم أو المعرفة العلمية وعليه تعني الابستيمولوجية حرفيا " نظرية العلم " أو " علم المعرفة ".

وكان أول من وضع هذا المصطلح الفيلسوف الاسكتلندي (جيمس فردريك فيرييه 1808-1864) حين ألف كتابه " مبادئ الميتافيزيقيا".

والمعنى المعاصر لمصطلح الابستمولوجية في الفلسفة العربية والفرنسية فهو الدراسة النقدية للمعرفة العلمية.

ويعرف لالاند الابستيمولوجية في معجمه الفلسفي " بأنها فلسفة العلوم والتي تعني دراسة نقدية لمبادئ العلوم وفروضها ونتائجها وقيمتها ومداها الموضوعي، بغية تحديد أيها المنطقي لا النفساني ".

وهي تختلف بهذا عن علم مناهج العلوم (ميثودولوجيا) لأن الأبستمولوجيا تدرس بشكل نقدي مبادئ كافة أنواع العلوم وفروضها ونتائجها لتحديد أصلها المنطقي وبيان قيمتها.

فالأبستمولوجيا هي العلم المتخصص في دراسة كيفية تكوين المفاهيم وتحولها، وكيفية تبادلها بين علم وعلم، وكيفية تشكل حقل علمي ودراسة الأحكام والقواعد التي يعاد بمقتضاها تنظيم المفاهيم للعلم، ويتناول هذا العلم البحث في أهداف العلوم وحدودها وعلاقتها ببعضها البعض والقوانين التي تحكم تطورها، وبكلمات أخرى تحاول الابستيمولوجية أن تجيب عن الأسئلة: " ما هي المعرفة؟ كيف يتم الحصول على المعرفة؟"

وفلسفة العلم أو الابستمولوجية ليست جزءا من العلم ذاته لأن فلسفة العلوم تأتي في صعيد وحدها لأنها حديث عن ذلك العلم وتعليق عليه وقول عنه، فعندما نقول عن علم الاجتماع أنه علم وصفي لا يكون هذا القول من علم الاجتماع بل حديث عن علم الاجتماع، ويتناول علم العلم بدراسة مسار الفكر العلمي واشتغاله وكيفية وبناء الفكر العلمي وذلك ضمن الموضوعات التالية:

1- الأسس النظرية لكل علم.
2- المبادئ العامة لكل علم.
3- ظروف تبلور كل علم وتطوره.
4- أساليب كل علم.

نشأة مفهوم الابستمولوجيا:

رغم أن مفهوم " العلم " حاضر في تاريخ الفلسفة ولا سيما عند أفلاطون وأرسطو وديكارت ولوك وليبنتز فإن الابستيمولوجية بوصفها مبحثا مستقلا موضوعه المعرفة العلمية، لم تنشأ إلا في مطلع القرن العشرين حين اتجهت إلى تحديد الأسس التي يرتكز عليها العلم، والخطوات التي يتألف منها، وإلى نقد العلوم والعودة إلى مبادئها العميقة وذلك بتأثير التقدم السريع للعلم والاتجاه نحو التخصص المتزايد وما ولدّه ذلك من تغير في بنية منظومة العلوم ومن صعوبات وإشكالات ذات طبيعة نظرية.

فالابستمولوجية إذا كلمة مستحدثة فهي لا توجد في معجم (ليترة) ولا في معجم "لاروس" إلى أنها ظهرت أول ما ظهرت في المعاجم سنة 1906، حيث جاء في معجم "أونيفرساليسم" أنها كلمة قديمة جدا أو أنها على الأقل مؤلفة من مواد قديمة جدا، ولكن استعمالها حديث لا يسبق القرن التاسع عشر ضمن مفردات الفلسفة المتخصصة، وهذه الكلمة يقابل ظهورها تاريخ الفلسفة وتاريخ العلوم، فيما يذهب (لالاند) في معجمه إلى أنها تدل على فلسفة العلوم، فهي ليست بوجه خاص دراسة الطرائق العلمية لأن هذه الدراسة موضوع علم المناهج (اليثودولوجيا) والأخيرة جزء من المنطق، كما تتوافق عليها المدرسة الفرنسية في الفلسفة، كما أنها ليس تركيب قوانين علمية أو استباقها بالافتراض، وهذا رغم صعوبة إيجاد للفواصل أو الحدود بين الابستيمولوجية والعديد من المجالات إضافة إلى "الميثودولوجيا (علم المناهج والغنزيولوجيا (نظرية المعرفة والكريتيريولوجيا (علم المعايير).

مجالات لها علاقة بالابستيمولوجيا:

بات واضحا لكل من عالج موضوع الأبستمولوجية أنه من العسير رسم تخوم تفصلها عن المجالات الأخرى، إذ مهما تتباين طريقة تحديد معنى الكلمة ستبقى تخوما متحولة، لان مشكلات الابستيمولوجية تتجاوز وتتناول في آن مجلات كنا قد وضعناها خارج تلك التخوم ومنها العلاقة بين الابستيمولوجيا وكل من:

1- **الابستيمولوجية ونظرية المعرفة theorie de la commaissance:**

الابستيمولوجية يوصفها الدراسة النقدية للعلم تختلف عن النظرية العلمية، ففي حين تتناول نظرية المعرفة عملية تكون المعرفة الإنسانية من حيث طبيعتها وقيمتها وحدودها وعلاقتها بالواقع وتبرز اتجاهات اختبارية وعقلانية ومادية ومثالية، فإن موضوع الابستيمولوجية ينحصر في دراسة المعرفة العلمية فقط ، بل ترى الابستيمولوجية في التعميمات الفلسفية للمعرفة عائقا أمام تطور المعرفة العلمية وخاصة حين تضع حدودا للعلم، فالابستيمولوجية ليست استمرار لنظرية المعرفة في الفلسفة بل هي تغير كيفي في النظر إلى العلم بالفلسفة، وتجاوز للتناقض بين نظرية

المعرفة والعلم، كما تدرس الابستيمولوجية أيضا وسائل إنتاج المعرفة كما تهتم بالشكوك حول ادعاءات المعرفة المختلفة، وتهتم الابستيمولوجية بنقد العلم من زاويتين:

- أولا الأفكار المكّونة: أو كما يسميها لالاند "العقل المكون" ويتمثل في النشاط الذهني الذي يقوم به الفكر حين البحث والدراسة والذي يصوغ المفاهيم ويقرر المبادئ.
- ثانيا الأفكار المكّونة أو كم يسميها لالاند "العقل المكوّن" ويقصد به العلاقات بين الأشياء مبادئ كلية وضرورية.

ولكن جان بياجيه مثلا يعد الابستيمولوجية ونظرية المعرفة أمرين مترادفين، ذلك أن العلم والفكر العلمي إنما ينشئ أحدهما الآخر بالتدريج ودون أن يبلغا حال الإنجاز في تطور المجتمعات وفي نمو الفرد سواء بسواء.

2- الابستيمولوجية وفلسفة العلوم:

يرى بلانشيه أن من شأن التمييز الدقيق أن يزداد عسرا بين الابستيمولوجية وفلسفة العلوم، وذلك من جراء مرونة هذه العبارة الأخيرة، فثمة من يعترض على السمة الفلسفية للمبحث الابستيمولوجي ويرى أن المهمة الأولى للابستيمولوجيا تمثل في تعيين معيار قبلي لكل معرفة علمية.

فإذا نظرنا إلى فلسفة العلوم بالمعنى الأوسع وجدنا أن الابستمولوجيا فصلا من فصولها ولكن بعض الابستمولوجيين يقطعون الجسور بين المفهومين وكأنهم يسعون إلى صون الابستمولوجيا كمصطلح جديد من فساد يصيبها من الفلسفة، وبدأت الابستمولوجيا تبتعد عن الفلاسفة وتقترب أكثر من العلماء.

غير أن الابستمولوجيا قد تحولت إلى مبحث من مباحث الفلسفة على مستوى الدراسات الاكاديمية في الابستمولوجيا، ويرى ديكارت أنه ليس بين العلم والفلسفة أي انقطاع وإنما بينهما اتصال مستمر.

ولكن تاريخيا فلسفة العلوم سبقت الابستمولوجيا، كما سبقت نظرية المعرفة تلك الفلسفة، والجدير بالذكر أن فلسفة العلوم في نظر كانت ومن بعده كانت أشبه بلجنة مراقبة تضبط شروط صحة المعرفة التي يسارع العلماء إلى تحاشي قراراتها ولكنها تلاحقهم بما تتوجب عليهم من الموانع والمحضورات وبذريعة حمايتهم من الخطر خطير يقع فيه العلم.

3- الابستمولوجيا وعلم المناهج (الميتودولوجيا):

الميتودولوجيا methode وهي مشتقة من methodos اليونانية ومعناها الطريق إلى المنهج المؤدي الى ... وبعد تطور الكلمة باتت تدل على مجموعة العمليات العقلية والعملية

التي يقوم بها العالم من بدء بحثه إلى نهايته من أجل الكشف عن حقيقة أمر أو واقع ما والبرهان على الفرضيات الموضوعة للوصول إليه.

وهكذا فإذا كانت الابستمولوجيا تتناول بالدرس والنقد مبادئ العلوم وفروضها ونتائجها لتحديد قيمتها وحصيلتها الموضوعية، فإن الميتودولوجيا تقتصر في الغالب على دراسة المناهج العلمية، دراسة وصفية تحليلية لبيان مراحل عملية الكشف العلمي، وطبيعة العلاقة التي تقوم بين الفكر والواقع، فهناك فرق بينهما في مستوى التحليل في خلال هذه العملية الميتودولوجيا، علاوة على كونها تتناول كل علم على حدة، مقصور دورها في الغالب على الدراسة الوصفية، في حين أن الابستمولوجيا فضلا عن طموحها إلى أن تكون نظرية عامة في العلوم، ترتفع إلى مستوى أعلى من التحليل، وهو مستوى البحث النقدي الرامي إلى استخلاص الفلسفة التي ينطوي عليها ضمنيا التفكير العلمي، حيث من جملة المسائل التي يتم تناولها بالنقد المناهج العلمية ذاتها، تبحث عن ثغراتها وتعمل على معالجتها، وكما يقول جان بياجيه بحق فإن "التفكير الابستمولوجي يولد دائما بسبب خطأ في المناهج السابقة وتعالج باكتشاف مناهج جديدة، ومن هنا يمكن القول أن الابستمولوجيا هي ميتودولوجيا من الدرجة الثانية.